Journal of Humanitarian and Applied Sciences - مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية
(رقم الإيداع المحلي - 90-2020)
كلية الآداب والعلوم قصر خيار - جامعة المرقب
Volume 9 - Issue 18 المجلد 9 - العدد 18

التفاعلات السياسية والتجارية لمكة المكرمة قبل الإسلام مع (الأنباط، بيزنطة، الفرس)

أ. صلاح محمد الفقيه

محاضر مساعد، تاريخ قديم

قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم – قصر خيار، جامعة المرقب

smalfaqih@elmergib.edu.ly

تاريخ استقبال البحث: 2025/12/02	تاريخ القبول: 2025/12/18

الملخص

يسلط البحث الضوء على مكانة مكة المكرمة كمركز ديني وتجاري في الجزيرة العربية، وكونها نقطة التقاء رئيسية بين طرق التجارة الدولية، وهي تقع بين اليمن والشام، الأمر الذي جعلها محطة رئيسية للقوافل، حيث كانت التجارة مصدر رزقها الأساسي، فشهدت قبائل متعددة منها الاستقرار منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى ظهور قريش التي نظّمت شؤونها، وقد تمكنت قريش من عقد اتفاقيات (إيلاف) مع القبائل والدول المجاورة لتأمين الطرق التجارية، بعيدًا عن الصراعات الفارسية البيزنطية، وبذلك نظمت رحلتي الشتاء إلى اليمن، والصيف إلى الشام، ما عزز مكانتها التجارية، وبهذا نشأت روابط تجارية وثقافية ودينية وثيقة بين مكة والدول المجاورة، وهكذا يمكن القول بأن قُرَيْشاً استطاعت أن تحقق بالإيلاف سمعة ومكانة بين القبائل العربية.

توضح هذه الورقة كيف شكلت هذه التفاعلات موقع مكة والمكانة الاقتصادية والسياسية لقريش، والهدف: لماذا كان لهذه التفاعلات أثراً حاسماً في تاريخ مكة قبل الإسلام.

الكلمات المفتاحية: مكة، التجارة، قريش، العلاقات.

The Political and Commercial Interactions of Mecca before Islam with the Nabataeans, Byzantium, and Persians

Salah M. H. Al-Fagih

Lecturer Assistant, Ancient History

History Department, Faculty of Arts and Sciences- Gasr Khiyar, Elmergib University.

smalfaqih@elmergib.edu.ly

Abstract

This study examines the significance of Mecca as a major religious and commercial hub in the Arabian Peninsula and as a central intersection along international trade routes. Its location between Yemen and the Levant made it a key stop for caravans, with trade constituting its primary economic activity. Over time, various tribes settled in Mecca, culminating in the emergence of Quraysh, who organized its political and economic affairs.

Quraysh established Ilaf agreements with neighboring tribes and states to secure trade routes amid regional tensions between the Byzantine and Persian powers. These agreements enabled the winter journey to Yemen and the summer journey to the Levant, enhancing Mecca's commercial influence. The paper explains how these interactions shaped Mecca's position and strengthened the economic and political role of Quraysh, demonstrating their decisive impact on pre-Islamic Meccan history.

Keywords : Mecca, Trade, Quraysh, Relations

المبحث الأول: مكة وأهميتها

1– أهمية موقع مكة.

2– إيلاف مكة.

المبحث الثاني: العلاقات المكية

1 –علاقة مكة بالأنباط.

2 – علاقة مكة بالدولة البيزنطية.

3 – علاقة مكة بالدولة الفارسية.

المبحث الأول: مكة وأهميتها.

أولا: أهمية موقع مكة

مكة هي بيت الله الحرام لها مكانتها ـ منذ نشأتها ـ عند قلوب العرب وغيرهم، ظلت عاصمة دينية على مر عصورها، ولم تتغير مكانتها حتى الآن، فهي صاحبة المناسك والمشاعر والقداسة والقدسية، وظل كل من ينشأ في مكة يفتخر بالانتماء إليها (بيضون، 1973).

كانت مكة محط أنظار الجميع، وتمتعت بمكانة مميزة على الصعيدين المالي والتجاري، فضلاً عن مكانتها العظيمة دينيا، وسكان مكة تميزوا بخصوصيتهم التي تختلف عن باقي القبائل العربية الذين عاشوا كقبائل متفرقة تتناحر أحياناً وتتآلف أحياناً أخرى، وذلك بانفرادهم بالأمن والسلام ورعايتهم لشؤون الحجاج، مما منحهم شرفاً كبيراً في هذا الجانب، عرف عنهم الاستقرار حول الكعبة المشرفة، الأمر الذي جعل مكة مركز جذب للعباد والتجار على حد سواء (إبراهيم حسن، 1964).

وبفضل موقعها الجغرافي كانت مكة نقطة تتجمع بها القوافل التجارية من بلاد اليمن وبلاد الشام، حتى كان لها أخبارها وأحاديثها من لقاء القبائل، وأصبح يقام فيها أندية للشعر والحكايات والمسابقات فأصبحت على هذا قلب الجزيرة العربية، ومكة تقع في واد منبسط من أودية جبال السراة، تحيط به الجبال الجرداء من كل جانب (الازرقي، 2004)، ووجود بيت الله الحرام بها هو نقطة بداية تاريخ المدينة بالإضافة إلى وجود بئر زمزم بها الذي جعل لمكة مكانة هامة عند

الحجازيين بصفة خاصة، وعند العرب بصفة عامة، وموقعها بين الشام واليمن جعلها ممرًا واستراحة للقوافل، فجعلها مدينة تجارية اعتمدت على ذلك اعتمادًا كليًا، وإضافة لذلك عدم وجود الزراعة بها (عاقل، 1973) .

وتنسب الروايات العربية تأسيس مكة إلى سيدنا إبراهيم علية السلام، عندما قدم إلى مكة ومعه زوجته هاجر وابنهما إسماعيل طفل رضيع، وتركهما هناك ورجع إلى فلسطين وكان مع السيدة هاجر القليل من الماء، وعندما نفذ منها وعطشت وعطش وليدها، راحت تسعى بين جبلي الصفا والمروة سبع مرات لعلها تجد من يساعدها، ولما أتمت السعي سبع مرات عادت إلى إسماعيل، فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه، فارتوت هاجر وابنها، وأقامت حوضاً حول الماء المنبثق حتى لا يسيل، وعرف ببئر زمزم، وأصبحت العرب ترد عليهم أثناء رحلاتهم، فينالان من الخير ما يكفيهم أسباب العيش إلى أن تمر بهم قوافل أخرى (اليعقوبي، 1993).

وعندما تدفقت عين زمزم أصبحت مرفأ للتجارة ما بين اليمن والشام، وبالتدريج استقر بها البعض أو أصبحت أماكن للراحة، ووادي مكة بطبيعته يحمي نفسه بالشعاب من حوله، وعلى أثر ذلك أصبحت مكة إحدى هذه المحطات التي جعل منها رجال القوافل مضارب لخيامهم، سواء منهم القادمون من اليمن إلى فلسطين، أو القادمون من فلسطين إلى اليمن (هيكل، 1968) ويقال إنه كان يسكنها قبائل من جرهم، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجاري المهم، وفي منتصف القرن الخامس يظهر قصي بن كلاب ومعه قبيلته فيستولي عليها ويخرج خزاعة منها (ضيف، 1960).

وسيدنا إسماعيل وأمه عليهما السلام هما أول من اتخذا هذا الموطن سكنا، أما إبراهيم عليه السلام فقد تركهما وعاد إلى فلسطين، وتنقل ما بين زوجته الأولى سارة وزوجته الثانية هاجر، حتى بنى معه ابنه إسماعيل الكعبة (ابن هشام، 1971).

وقد اختلف في بنائها والأمم التي توالت عليها، ويقال إن أول من سكنها العمالقة ثم جرهم، وهى فرقة من القحطانية، نزحت من اليمن قديماً، ثم جاءها بنو إسماعيل، ثم الأزد بعد سيل العرم، ثم خزاعة فكنانة فقريش (زيدان، د ت)، كما اختلف المؤرخون في اشتقاق اسم مكة فالبعض يرجح الكلمة إلى الازدحام بالناس، وقيل أيضا إنما سميت مكة؛ لأن العرب تقول: لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وقد كان العرب يصفرون ويصفقون أثناء وجودهم بها، وقال آخرون: إنها سميت مكة لوقوعها بين جبلين مرتفعين شاهقين (الخياط، د ت).

وقد سماها القرآن مكة، وأم القرى كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ اَلْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ اَلْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فيه فَرِيقٌ فِي اَلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (سورة الشورة، الآية 5)، وسميت بالبيت العتيق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (سورة الحج، الآية 27)، والبلد الأمين (السباعي،1999) ﴿ وَهَذَا اَلْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ (سورة التين، الآية 3) كما سماها بكة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة ال عمران، الآية 96).

2- إيلاف مكة:

الإيلاف هو العهد، وهو من الألفة والتأليف بين الناس بعد تفرق، وكذلك هو عبارة عن عقد الحبال مع سادات القبائل على التصاعد والاتفاق (على،1976) وقد تميزت منطقة الوسط في شبه الجزيرة العربية خاصة الحجاز ببعدها عن أطماع

الغزاة والمحتلين، فالجيوش الغازية لم تتوغل مطلقًا نحو مكة أو يثرب (المدينة المنورة) أو الطائف، كما لم تصلها حملات رومانية أو فارسية، ويعود السبب في ذلك إلى بعد المسافة وصعوبة التضاريس، مما جعل وصول الجيوش الكبرى إليها أمرًا شاقًا، وبهذا، ظلت هذه المنطقة بعيدة عن سيطرة الدول العظمى، وكأن الله قد حماها وجعلها منطقة آمنة لسكانها، لتكون بذلك تمهيدًا لظهور الرسالة المحمدية الدين الإسلامي (الشريف،1424 هـ).

وبما أن بلاد الشرق القديم التي كانت محورًا للصراع بين الدول الكبرى الفارسية والبيزنطية، ولا سيما وجود طرق التجارة، الأمر الذي كان له أثر على ذلك، حيث دخلت الجزيرة في أطراف هذا النزاع من ناحية أطرافها وذلك أن القسم الشمالي من الجزيرة العربية قد شهد أعنف المعارك الحربية، كما شهد القسم الجنوبي أنواعًا من الصراع السياسي والديني (التغلغل عبر التبشير الديني)، (عوض، 1993)، أما داخل الجزيرة العربية نفسها فلم يكن له نصيب في هذا الصراع إلا في القرن السادس الميلادي (التجارة والتحكم في موسم الحج والأمن داخل مكة هذا جعلها تتنافس مع قبائل مثل: هوازن)، ففي جنوب الجزيرة العربية وخصوصا في بلاد اليمن في عصر الدولة المعينية في سنة 1350 ق م وتلتها الدولة السبئية والدولة الحميرية كانت هذه الدول محط التجارة ومنطقة صراع، بخلاف وسط الجزيرة العربية التي لم تكن مطمعا لفاتح، لقلة خيراتها، وصعوبة تسيير الجيوش إليها، كما لم تكن مدن الحجاز محطات تجارية تنزلها القوافل للراحة والتزود، ولذلك لم يذكر التاريخ عن غزو وجّه إلى داخل شبه الجزيرة أو إلى مدنها الواقعة على طرق التجارة على الرغم من حملة اليوس جالوس بين سنتي 24/25 ق م، ويذكر لنا استرابون الذي كان صديقاً لقائد هذه الحملة إن سببها محاولة أغسطس إما السيطرة على مدخل البحر الأحمر عن طريق كسب العرب كأصدقاء أو إخضاعهم والسيطرة عليهم، بالإضافة إلى الثروة الهائلة التي كانت تتمتع بها المنطقة وخاصة التوابل والبخور (اللافي، 2008).

ترجع الحروب بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على أجزاء من بلاد العرب الي التنافس التاريخي القديم بين الشرق والغرب، كما يرجع إلى الاختلاف في أشكال أنظمة الحكم في كل من الدولتين، لقد بداء التنافس الدولي على الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية منذ مطلع القرن الخامس الميلادي، وأخذ العالم الخارجي يمد بصره نحو تلك الأصقاع للسيطرة على مواقعها التجارية (عبدالكريم، 1997).

ولقد حاولت بيزنطة نشر المسيحية في بلاد اليمن عندما تحالفت مع الحبشة، وذلك لقرب الحبشة من بلاد العرب، واتخذت منها أداة لبسط نفوذها على بلاد اليمن، وردت فارس من ناحيتها بأن شجعت الديانة اليهودية المعادية للمسيحية، وعلى هذا قامت الخلافات الداخلية مما أدى إلى إضعاف دولة الحميريين، وقد بلغ هذا التدخل ذروته في حملة الحبشة والتي انتهت بسيطرتها على بلاد اليمن، وكان ذلك في (525م) (اليعقوبي، 1993)، ولكن هذه المحاولة ـ على الرغم من النجاح العسكري الذي حققته في القضاء على حكم الملك اليمني الذي اعتنق الديانة اليهودية (ذو نواس) ـ أخفقت في ترسيخ إقدام التحالف البيزنطي الحبشي في جنوب الجزيرة العربية ووجدت صعوبة، وذلك بسبب منافسة النفوذ الفارسي القوي، مما يفسر استئناف عمليات الأحباش العسكرية نحو الشمال (الحجاز)، بغية الاتصال بحلفائهم البيزنطيين في الشام (حملة أبرهة على مكة)، وكان الفرس من جانبهم يحاولون الوصول إلى هذه المنطقة؛ لأن إمبراطوريتهم كانت مطلة على شبه الجزيرة العربية، وتقع على تخومها الشرقية، حتى استطاع الفرس احتلال اليمن سنة 575م (بيضون، 1973).

وظلت بلاد اليمن منطقة صراع، مما جعل الخلافات الداخلية قائمة بدورها، الأمر الذي أفقدها النهوض والسيطرة على طريق التجارة، حيث كان النزاع بين الروم والفرس قد أدى إلى قفل طريق التجارة بين العراق والشام، بالإضافة الى أن البحر

الأحمر أصبح خاليًا من سفن الروم، وهكذا جاء نمو الطريق البري في شبه الجزيرة العربية علي حساب البحر الأحمر الذي اقتصر على تجارتي الحبشة ومصر، وكان من الطبيعي أن يكون انتعاش هذا الطريق يؤدي الى ظهور محطات متفاوتة الأهمية، تبعا لما تؤمنه من خدمات للقوافل في منطقة يغلب عليها الطابع الصحراوي الجاف، وكان الماء هو الذي يحدد مسار الطرق بين محطة وأخري (بيضون، 1973).

وكان لإحدى هذه المحطات نصيب الأسد في الدور التجاري، مستفيدة من المتغيرات المهمة التي وضعتها في وسط حركة التجارة العالمية، ومن هذه الأسباب وغيرها حظيت مكة بدور الوسيط في التجارة داخل الجزيرة العربية، والاستقرار على يد قبيلة قريش الذين أخذوا يتطلعون بدورهم في الزعامة، لا سيما وأن طرفي الصراع الدولي الفرس والروم أنداك رحَّبا بوجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى (مهران، د ت).

ومن هنا أصبحت مكة محطة مهمة على طريق القوافل، وأخذت تعمِّق علاقاتها مع الدول المحيطة بالجزيرة العربية، متخذين موقف الحياد لتجنب الصراع ورواج تجارتهم، مما هيأ لها أسباب التقدم التجاري بالإضافة الي المكانة الدينية (سلامة، 1994).

وقد كانت مكة في فترة ازدهارها تعاصر امبراطوريتين كبيرتين، وكان الجانب التجاري هو محور العلاقات بين هذه الدول ومكة، فبيزنطة كانت تريد الحصول على منتوجات الشرق الثمينة في حين كان الفرس يسيطرون على طرق التجارة البرية عبر الصين والهند، بالإضافة إلى طرق التجارة البحرية من الهند إلى الخليج العربي، والتي كانت تمثل حجر عثرة أمام التجارة مع بيزنطة في أوقات الحرب، مما يجبرها على دفع ضريبة باهظة على هذه السلع خاصة الحرير والتوابل زمن السلم، وبذلك لم يكن هناك سوى طريق واحد لا تسيطر عليه فارس وهو طريق يمر غربي الجزيرة العربية وسوريا وهو طريق البخور، ومما ساعد على ذلك أن طريق البحر الأحمر لم يكن ملائما للتجارة، بسبب كثرة الشعاب المرجانية، الأمر الذي قد يعرض السفن للمخاطر(عاقل، 1973).

تجمع المصادر على أن هاشم بن عبد مناف هو أول من بدأ بالإيلاف، وفي ذلك يقول البلاذري "أن هاشم صاحب إيلاف قريش الرحلتين، وأول من سنها" (البلاذري، 1996)، كما يذكر الطبري وابن الاثير أن أبناء مناف هم أول من أخذ الإيلاف لقريش (الطبري، 1987) حيث استطاع هاشم بن عبد مناف وإخوته (عبد شمس ونوفل والمطلب) من الحصول على التسهيلات التجارية من الدول المجاورة للمرور بتجارته في أراضيهم، في حين تعهد هؤلاء الإخوة بالتعاون والتبادل التجاري معهم فيما تأتى به تجاراتهم في رحلات منتظمة سنويا إلى اليمن والشام التي عرفت برحلتي الشتاء والصيف، وهي من الرحلات المهمة للتجارة المكية التي كانت تقرر منها قريش الرحلات الفرعية إلى أنحاء الجزيرة (إبراهيم حسن، 1964)، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ (1) إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ (3) ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ (4) وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (سورة قريش).

لقد عمل هؤلاء الإخوة على تأمين طرق القوافل بما عقدوه من إيلاف مع رؤساء القبائل العربية الضاربة على جنبات طرق التجارة، ومع دولتي الفرس والروم، وبذلك كونوا شبكة من الطرق التجارية تربط مكة بما حولها وبقية أنحاء الجزيرة، كما أنهم استطاعوا بجهودهم ربط مصالح الشرق والغرب الاقتصادية بهاتين الرحلتين اللتين كانتا تقومان على التبادل التجاري بين الشمال والجنوب (اليعقوبي،1993).

لقد أدى هذا النشاط التجاري إلى توسع كبير لأعمال قريش التجارية، ويدل على ذلك المقدار الضخم للقوافل القريشية، فقد كانت قافلة قريش التي كان يقودها أبو سفيان من الشام في بدر تتكون من ألف بعير فيها أموال عظيمة لقريش بلغت نحو خمسين ألف دينار، وبلغت إحدى قوافل قريش ألفا وخمسمائة بعير (ابن الاثير،1987)، وقد خرج النبي صل الله عليه وسلم في أحد هذه القوافل إلى الشام عندما كان صغيرا مع عمه أبي طالب، كما عمل بالتجارة مع السيدة خديجة بنت خويلد (ابن أسحق، 1981)، وبلغ من ثراء قريش أنها استطاعت في غزوة بدر أن تفتدي أسراها من المكين بأربعة آلاف درهم للرجل إلا من عفا عنهم النبي صل الله عليه وسلم (العتيبي، 2022).

المبحث الثاني: العلاقات المكية.

1- علاقة مكة بالأنباط:

قامت دولة الأنباط على أطراف منطقة فلسطين حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وتميزت بحضارة عربية الأصل، واللغة أراميه في الكتابة سامية في دياناتها، يونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية، عاصمتها البتراء (اللافي، 2008)، أو رقيم أو سلع الذي يعني الصخرة التي تفصل بين واديين (صالح، 2010)، نزح النبط من البوادي إلى أعالي الحجاز وأقاموا بها، وسرعان ما استقروا وتحضروا واشتغلوا بالزراعة والتجارة، وكان لهم الأشراف على القوافل التجارية (على، 1976)، كان للموقع الجغرافي أكبر الأثر في تكوين مملكة الأنباط، حيث كان يمر من شبة الجزيرة العربية طريقان أساسيان أحدهما كان يمتد من اليمن إلى جنوب فلسطين، والثاني يمتد من الخليج العربي، ويدخل سوريا وصولاً إلى دمشق (مهران، د ت).

ارتبطت قريش منذ القدم بعلاقات وثيقة بالأنباط بل إن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نحن معاشر قريش من النبط) وقيل إن سيدنا إبراهيم عليه السلام ولد بها، وكان النبط سكانها، والأنباط كانوا أقرب لقريش من القبائل العربية الأخرى في الجنوب، كما أن الخط الذي استعمل في كتابة الوحي مقتبس من الخط النبطي، وهو دليل علي العلاقة القوية التي ربطت بين قريش والأنباط، وتمثلت بوضوح أكبر في الناحية الدينية، حيث عبدت قريش بعض آلهة الأنباط، ووضعت أصنامها في جوف الكعبة (بيضون،1973).

أجمعت الروايات التاريخية على أن عمرو بن لحي هو أول من استقدم أصنامًا من الشمال "الشام"، ونصبها حول الكعبة، وذلك لتكون وسيلة لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال، وانتقالهم ناحية أرض الحجاز، فوضع تماثيل آلهة الشمال التي كان النبطيون يعبدونها، ومنها هُبل وهو أشهر صنم عند أهل مكة، بالإضافة إلى اللات ومناة والعزى (الشريف، 1424هـ)، وكان التجار الأنباط يحملون إلى مكة الحبوب والزيت والنبيذ (أبو الفضل، 1980)، ومما عمق الصلة بين قريش والأنباط أن أم قصي تزوجت رجلاً من بنى عذرة، وقد كان لرزاح بن ربيعة أخو قصي لأمه دوراً في إخراج خزاعة من مكة، وتمكين قريش من الكعبة (الزواوي، 1973).

وكان الأنباط يمدون السوق المكية بالمواد الغذائية من الشام، لاسيما القمح الذي كان من أهم منتجات هذا الإقليم، ولكن تاريخ العلاقات التجارية بين الطرفين غير واضحة تماماً، حيث يعتقد أن التجار الأنباط مارسوا نشاطهم حتى بعد سقوط دولتهم على يد الرومان (106م)، وانتقال مركزهم من البتراء إلى بصرى، التي أصبحت فيما بعد نهاية خط القوافل المكية إلى الشام (بيضون، 1973).

2- علاقة مكة بالدولة البيزنطية:

كلمة بيزنطة مرجعها إلى الإمبراطور قسطنطين، عندما بني عاصمته القسطنطينية، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعي بيزنطة، أسسها بيزانس Byzas قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت من مدينة ميجار Megara، التي أسست في القرن السابع الميلادي، وظهرت الدولة البيزنطية حوالي القرن الرابع الميلادي، وانتهت في القرن الخامس عشر الميلادي 323-1453م، (توفيق، 2000).

كانت العلاقات التجارية بين العرب والرومان قديمة، حيث عرف الرومان الساحل العربي وأتوا إليه باعتباره أرض الطيوب واللُّبان، وفي سنة 24 ق.م قام الرومان بمحاولة فاشلة قادها اليوس جاليوس للسيطرة على بلاد العرب، في وسيلة لتوطيد تجارتهم ونفوذهم، وقد اتجهت الحملة إلى الجنوب، ولم تقصد مكة أو يثرب أو الطائف؛ لأنها كانت محطات صغيرة، (سلامة، 1994).

لقد لعب الغساسنة حلفاء البيزنطيينَ (الروم) دورا كبيرا في التجارة بين بلاد العرب وسوريا والشام والروم، ويبدوا ذلك فيما كانوا عليه من الثراء والترف، وفيما شيدوه من القصور والمنازل والمرافق العامة، وبتزايد قوة الغساسنة اعترف القيصر بالمكانة العالية التي حققوها بالشام وما جاورها، ولم تكن دولتهم القوة الوحيدة من العرب في منطقة التماس بين الفرس والروم، فقد كانت بالقرب من نهر الفرات مملكة الحيرة حليفة الفرس، وقد أدى الخلاف في التحالفات لحروب طويلة بينهما، رغم انحدارهم من جد واحد، وقد حدث هذا الأمر بسب النزاع بين الروم والفرس، مما جعل طرق التجارة غير آمنة وساهم في صعود مكة المكرمة (مجتبي، 2009).

وحين ورثت بيزنطة سلطان الرومان في المشرق ورث معه البيزنطيون رغبة الرومان في الاستيلاء على طريق التجارة عبر الحجاز، إذ إن الطريق عبر العراق كان في يد خصومهم الفرس، "طريق الحرير " وفي الوقت الذي حصلت فيه مكة على عهود من الحميريين والأحباش على دخول بلادهم للمتاجرة، وبالمقابل حصل أحد زعماء مكة وهو هاشم بن عبد مناف على عهد من الغساسنة والبيزنطيين على المتاجرة في أرضيهم، وكان تفكير البيزنطيين في أن يسيطروا على الرأس الجنوبي لهذا الطريق، والاتصال مباشرة بمنابع التجارة الشرقية، ولكن هذا كان أمرًا يمثل لهم حلمًا، حيث أنه من الصعب أن يسيروا له جيوشهم، ولهذا فقد اتخذوا الحبشة حليفة لهم لتقوم بهذا الدور واصطنعوا الدين وسيلة لذلك، وحين استطاعت الحبشة الاستيلاء على اليمن عمل الحليفان على الاتصال عبر هذا الطريق، وبدأت محاولات للسيطرة عليه، وإزالة ذلك الوسيط التجاري وهو مكة، ولا شك أن حملة أبرهة كانت إحدى هذه المحاولات العسكرية الفاشلة، (الشريف، 1424هـ).

إن حملة أبرهة على مكة كانت بإيعاز من البيزنطيين الذين خططوا للاستيلاء على الطريق التجاري الممتد من اليمن جنوبا إلى بصرى شمالا، وبالتالي فرضهم لحصار اقتصادي على أعدائهم الفرس، وتخلصهم من الضرائب الباهظة والرسوم التي كانوا يقدمونها إليهم حتى يسمحوا لهم بدخول أسواقهم أو مرور قوافلهم، ولما فشلت الحملة قام البيزنطيون بمحاولة سياسية بتمليك سيد من قريش عليها (ضرار، 1966).

وبعد قيام مملكة الغساسنة الذين اصطنعهم البيزنطيون على تخوم البادية لصد هجمات البدو على مناطقهم، والحد من انتشارها على أطراف دولتهم، تعمقت العلاقات أكثر من ذي قبل، وكانت التجارة مستمرة بين العرب وبلاد الشام والبيزنطيين، (سلامة، 1994)، وفكر البيزنطيون من الناحية السياسية في السيطرة على مكة، وذلك بتمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة البيزنطيين، فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن

عبد العزى القرشي (على، 1976)، (وكان عثمان ممن تمردوا على الوثنية من حكماء مكة وبحثوا عن ديانة أخرى أفضل منها، وقد قدم عثمان على قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده، وعندما عاد عثمان لمكة يحمل تعليمات الإمبراطور البيزنطي لم يبايعه أهل مكة، (ابن الكلبي، 1965).

لقد كانت ـ دون ريب ـ محاولة ذكية من البيزنطيين، الذين عرف عنهم عدم التورط المباشر في شبه الجزيرة العربية، عندما لجأوا إلى اصطناع شخصية مكية لتنفيذ انقلاب داخلي لمصلحتهم (بيضون،1973)، كان البيزنطيون يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب إلى جانبهم إذ بهم يتمكنون من بسط نفوذهم على القبائل، في هذه الفترة كان الصراع بين الفرس والبيزنطيين على أشده، ورأى أهل مكة البقاء على الحياد، وبهذا اطمأن أهل مكة على تجارتهم، وذلك لبعد بلادهم عن متناول الصراع، والموقف الذي اتخذه أهل مكة لم تترتب عليه أي نتائج خطيرة بالنسبة لمكة (الشريف، 1424هـ).

واستمرت مكة كمركز تجاري يتوافد عليها التجار من بلاد الشام ومن العراق ومن بلاد الروم والفرس وغيرهم، وتحالفوا مع أثريائها، ومنهم من أقام فيها مقابل دفع جزية لحماية أمواله وتجارته، وكان من بين التجار البيزنطيين في مكة من هو عين على العرب، يتجسس لهم ويكتب لهم عن صلاتهم بالفرس، وعن تواجد الفرس في جزيرة العرب واتصالهم بالقبائل، وذلك لضمان استمرار التجارة مع بلاد العرب (على، 1976).

ولكن بيزنطة ـ مع ارتباطها مع العرب من الناحية التجارية ـ لم تكن تقبل التفاوض مع العرب علي مبدأ الباب المفتوح، فقد كانت ترى في كل غريب عنها أنه يجب مراقبته عن كثب، فلم تكن حكومة بيزنطة تسمح لتجار العرب بحرية الإقامة والتجارة إلا في عدد ثابت من المدن السورية، ففي فلسطين كان يسمح للعرب بحرية التجارة في مينائي أيله–العقبة– (الحموي، 1977) وغزة، وفي مدينة القدس، أما في سوريا فقد كان سوق بصر (أبي الفداء، د ت) مفتوحاً لهم، وكانت بصرى تؤلف المحطة التجارية الأخيرة لقوافل قريش، وسوق للغلال بالنسبة للحجازيين (عبدالعزيز، د ت).

3– علاقة مكة بالدولة الفارسية :

صلة العرب بالفرس أقدم من تاريخ عهود الإيلاف القرشية حيث أدي العرب الجزية للملك قورش منذ سنة 550 ق.م، ثم ساعد الفرس العرب علي تأسيس مملكة الحيرة التي عاشت قرابة أربعة قرون، وقد عاش بهرام جور بن يزدجر الأول لدي النعمان بن امرئ القيس لينشأ نشأة عربية، فأجاد بهرام اللغة العربية إلي جانب لغات أخري، وقد نظم بهرام شعراً فارسياً على نمط الشعر العربي، فهو أول من فعل ذلك، لذا فقد التزم أهل الحيرة بحماية قوافل الفرس التجارية، مقابل ما يدفعه من مال أثناء مرور القوافل في أراضي الجزيرة العربية، ومن هذه الصلة تحكم الفرس في أمور الحيرة (سلامة، 1424).

ومن أجل التجارة سعت قريش لتوسيع علاقاتها وصلاتها بالدول الكبرى في ذلك العصر، بعهود وإيلاف مع الفرس والروم والحبشة واليمن، ومع ملوك الحيرة والغساسنة وسادات جميع القبائل العربية، وقد حصل أحد رجال مكة وهو نوفل بن عبد مناف على عهود من كسرى للمتاجرة في بلاد الدولة الفارسية (الطبري،1967).

لقد اتصلت تجارة مكة بالعراق ولكنها لم تكن بنفس القوة التي كانت عليها بالنسبة للجنوب أو الشمال، والفرس دولة كبيرة وقوية في تلك المرحلة، فقد استطاعت أن تحتكر التجارة الشرقية المارة ببلادها، وخاصة تجارة الحرير، ولم يسمحوا بوصولها إلى يد البيزنطيين إلا بأثمان غالية جداً، وهذا الأمر كان له فائدة لمكة؛ لأن احتكار الفرس التجارة الشرقية روجت

تجارة مكة وقوة مركزها لدى البيزنطيين، والحيرة في تلك المرحلة كانت تلعب دور الوسيط تستلمها، ثم تجيزها إلى أسواق العرب نضير رسوم تدفعها لرؤساء القبائل لحماية هذه التجارة، كما أن ملوك الحيرة كانوا يرسلون متاجرهم إلى أسواق مكة كل عام في حماية بعض رؤساء القبائل العربية، الأمر الذي جعل تجارة قريش قليلة مع هذه الجهات، ومع ذلك فقد كانت قوافل قريش تتصل بالحيرة، ويقال إن قريشاً تعلمت الكتابة من الحيرة (الشريف، 1424هـ).

وكان أبو سفيان يتمتع بصلات تجارية مع ملوك الحيرة وتجارها، بل ذَكَرَ أنه كان يَفِدُ على كسرى يحمل إليه الهدايا تقرباً إليه، وتجار الحيرة يزورون مكة للاتجار بها، ولهم مع تجارها عقود، فإذا ذهب أحدهم إلى مكة نزل على حليفه وجاره ثم باع ما عنده من تجارة، واشترى ما يجده بمكة من سلع مطلوبة ثم يعود إلى الحيرة (على، 1976).

إن العلاقات التجارية بين الفرس وأهل الحجاز كانت قوية جداً حيث جاب تجار الفرس أسواق الحجاز جميعها، وقد أدي ذلك إلى بت بعض النظم السياسية في مكة ويثرب خاصة (سلامة، 1994).

الخاتمة

لم تكن مكة المكرمة مجرد مدينة دينية معزولة في الصحراء يقدسها العرب لوجود الكعبة المشرفة فيها، بل كانت مركزًا تجاريًا وسياسيًا حيويًا في قلب الجزيرة العربية، تمكّنت بفضل موقعها الاستراتيجي بين طرق القوافل وبُعدها عن الصراعات العسكرية من أن تصبح همزة وصل بين الشرق والغرب.

ـ رافق التجارة الحجازية نشاط مباشر للأسواق التي أخذت تتطور حتى أصبحت في أوج نموها في القرن السابع الميلادي، حيث كانت هذه الأسواق تنتقل في شبه الجزيرة العربية بحيث تتضمن تغطية أغلب المناطق، وأهم هذه الأسواق التي كانت قريبة من مكة هو سوق عكاظ وذي المجاز، وسوق عكاظ كان لها شأن في عملية التوحيد اللغوي والاقتصادي، بالإضافة لكونها منبرا ثقافيا مما حدا برسول صل الله عليه وسلم أن يعرض على القبائل العربية القادمة إلى مكة الدخول في الإسلام وترك عبادة الأصنام.

ـ لعب العامل الاجتماعي دورا بارزا في حياة أهل مكة السياسية والاجتماعية وحتى الدينية، حيث أكسب المنطقة نوعا من القداسة لكل سكان الجزيرة العربية، خاصة بعد فشل حملة أبرهة الحبشي المعروفة بعام الفيل.

ـ كانت مكة في تلك الفترة بمثابة دولة المدينة لها تنظيمها السياسي والاجتماعي والديني الخاص بها، تختلف عن بقية التنظيمات الأخرى السائدة في تلك الفترة الزمنية في بلاد الفرس والروم، فقد بلورت ذلك حسب تقاليدها وأعرافها.

ـ أدارت قريش شؤونها بذكاء وحنكة، فاتبعت سياسة الحياد تجاه القوى العظمى كالإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، واستغلت تنافسهما لتأمين مصالحها التجارية وتعزيز مكانتها الاقتصادية والدينية، وتمكنت من الصعود كقوة إقليمية قبل ظهور الإسلام، لقد كان لسياسية اللين والحياد الذي انتهجته قريش في علاقاتها سواء مع القبائل أو الحواضر الحجازية دور كبير في جعل مكة ترتبط بعلاقات حسنة مع معظم الدول المجاورة.

ـ أقامت علاقاتها مع الدول الكبرى في ذلك الوقت على أسس تبادلية تخدم التجارة والأمن والاستقرار، وأسهمت هذه العلاقات في ترسيخ مكانة مكة كقوة مؤثرة في المنطقة، كما أن التجارة المكية في تلك المرحلة جزء من التجارة الدولية نشأت بفعل ظروف تاريخية وأندثرت مع اندثار الإيلاف وانتقال الأمر برمته إلى الدولة الإسلامية الوليدة.

وبذلك يمكن القول إن مكة كانت نواةً مبكرةً لحضارة عربية متميزة، جمعت بين الدين والتجارة والسياسة، ومهّدت بوعيها وحيادها السياسي الطريق لظهور الرسالة الإسلامية التي وحّدت الجزيرة تحت راية واحدة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1. القران الكريم
2. ابن هشام، ع. (1971) سيرة ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، ج 1.
3. البلاذري، أ (1996)، أنساب الاشراف، دار الفكر، ج1.
4. ابن الاثير، م.(1987) الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ج1.
5. ابن اسحق، م. (1981)"، السيرة النبوية، دار احياء التراث.
6. ابن الكلبي، أ. (1965)، الاصنام، الدار القومية للطبع والنشر.
7. ابي الفداء، ع. (د ت)، تقويم البلدان، دار صادر.
8. اليعقوبي، أ. (1993)، تاريخ اليعقوبي، مؤسسة العلمي للمطبوعات، ج1.
9. الازرقي، أ. (2004)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مكتبة الثقافة الدينية، ج1.
10. الطبري، م. (1967)، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، ج1.
11. الحموي، ي. (1977)، معجم البلدان، بيروت، ج1.

ثانياً: المراجع:

1. بيضون، أ. (1973)، الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للنشر.
2. السباعي، أ. (1999) تأريخ مكة دراسات في السياسية والعلم والاجتماع والعمران، مكتبة الملك فهد للنشر.
3. الشريف، أ. (1424 هـ)، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، دار الفكر العربي.
4. الزواوي، م. (1973) طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، دار النهضة.
5. سالم، أ. (د ت) تاريخ العرب في عصر الجاهلي، دار النهضة العربية.
6. زيدان، ج. (د ت)، العرب قبل الإسلام، دار الهلال.
7. علي، ج. (1976)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الملايين، ج7.
8. حسن، أ. (1964)، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية ج1.
9. ضيف، ش. (1960)، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف.
10. ضرار، ض. (1966)، العرب من معين الي الامويين، مكتبة الحياة.
11. صالح، ع. (2010)، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مكتبة الأنجلو المصرية.
12. الخياط، ع. (د ت) تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات الجامعة المفتوحة.
13. سلامة، ع. (1994)، قريش قبل الإسلام دورها السياسي والاقتصادي والديني، دار المريخ للنشر.

14. الفضل، ع. (1980)، مكة في عصر ما قبل الإسلام، مطبوعات دار الملك عبد العزيز.
15. توفيق، ك. (2000)، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية.
16. مهران، م. (د ت)، دراسات تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية.
17. هيكل، م. (1968)، حياة محمد، مكتبة النهضة المصرية.
18. عبد الكريم، م. (1997)، التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الاسلام حتى القرن 4هـ، مؤسسة حمادة للنشر.
19. عاقل، ن. (1973)، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر.

ثالثاً: الرسائل الجامعية:

1. اللافي، س. (2008)، إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس واثارها الإيجابية والسلبية على الإمبراطورية الرومانية 284-305م، [رسالة ماجستير كلية الآداب والعلوم ترهونة، جامعة المرقب].
2. مجتبي، ع. (2009) التنظيمات السياسية للعرب قبل الإسلام، [رسالة دكتوراه الفلسفة في التاريخ، جامعة الخرطوم].

رابعاً: المجلات العلمية:

1. عوض، ب. (1993) الصراع الديني على شية الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المجلد 11، العدد 195.
2. العتيبي، ف. (2022)، مكة وسيطرتها التجارية قبل الإسلام، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 37.